الفصل التاسع

تفنن الرقيب الأول جون كيسي كثيراً في سبيل إيجاد نقطة التفتيش العسكرية المثالية. في تشرين الثاني/نوفمبر 2004، انفجرت سيارة مفخخة عند إحدى نقاط التفتيش خارج بعقوبة، مدينة ذات 300000 نسمة قريباً، على مسافة 35 ميلاً إلى شمال ـ شرق بغداد. جندي واحد جُرح في الهجوم، حافزاً كيسي على وضع خطة أفضل لتمكين مفرزته من تفتيش السيارات المدنية. كانت العملية تبدأ بما اعتقد أنها بقعة نموذجية: قطاع موحل من الطريق خارج شارع ضيق مجنح بخندق عميق مملوء بأعشاب طويلة وأكوام عديدة من التراب، عوائق طبيعية قادرة على إبطاء أي سيارة تحاول نطح جنوده. في 23 تشرين الثاني/نوفمبر ـ بعد يوم واحد من مغادرتي الفلوجة للالتحاق بقاعدة عمليات **جواد الحرب** المتقدمة، حيث كان اللواء الثالث من فرقة المشاة الأولى متمركزة، انطلقت في دورية مع كيسي ومفرزته، من عناصر اللواء المدرع الـ 263. لم يَبْدُ الشبابُ شديدي السعادة بوجود مراسلة معهم؛ كانت المسألة مسألة حظ لا أكثر ولا أقل مع الجنود ـ بعضهم كانوا يطيقون بل ويحبون الدعاية في حين كان آخرون يروننا مصدر إزعاج، مقاتلين فاشلين، أو مجرد رسل لا عمل لهم سوى إيصال الأخبار المشؤومة والسيئة إلى الأهل في الوطن.

تمثل هدف نقطة التفتيش بضمان بقاء حركة المرور متدفقة مع قيام جنود من مفرزته بمد سلك عبر الشارع، كما قال لي. ثم أضاف "بتلك الطريقة لا يرى الأوغاد رتل السيارات الطويل ويهربون." أحد جنوده أوعز لسيارة بيضاء بالخروج عن الشارع. صرخ أقرب الرجال "سيارة داخلة". كرر كيسي عبارة "سيارة داخلة". تردد صدى العبارة المكرورة في رأسي مثل نبض أغنية معروفة. **سيارة داخلة. سيارة داخلة.** وأنا أتابع خروج السيارة عن الطريق. على امتداد أشهره التسعة في العراق بقي هم كيسي، وهو القادم من سيدار تاون الجورجية، متمركزاً في المقام الأول على تحقيق مهمة رئيسة واحدة: إلقاء القبض على الأشرار. كانت منطقة دياله الواقعة على الحدود الشرقية من المثلث السني، حيث كانت المفرزة تقوم بأعمال الدورية، زاخرة بالأشرار المطلوب إلقاء القبض عليهم. ومنذ معركة الفلوجة في محافظة الأنبار الغربية كانت القوات الأمريكية قد لاحظت نشاطاً متزايداً للمتمردين في بعقوبة.

فوق الهمفي من المكان الأقرب إلى كيسي أطلق جندي رماة مكلف بمراقبة الحقول المحيطة ومسحها عبر المنظار المقرِّب، صرخة قائلاً: "ثمة يا ريس رجل في ملابس سوداء يهم بالتقاط شيء. إنه على بعد نحو كيلومتر. يحمل كيساً بلاستيكياً أسود. إنه يلتقط شيئاً من الأرض." مد كيسي يده إلى المنظار: "دعني أنظر!" أمعن النظر في الحقل عبر العدسات. قال كيسي: "إنه يلم حبات اللفت" معيداً النظارة إلى الرامي. "إن هذا الوقت من السنة هو موسم اللفت والملفوف." تحرى الرامي رجلاً آخر، فصرخ: "يمشي مثل موسى."

علق جندي آخر متمتماً: "إنْ هو إلا أحد الرعاة".

كان من شأن القوات الأمريكية في العراق أن تكون حلبة رقص فيلة بالغة القسوة، شديدة الحدة ـ لا كل جندي منفرد ولا كل مجابهة منفردة بين أحد الأمريكيين وأحد العراقيين. غير أن عدداً كبيراً من الجنود الذين التقيتهم لم

يكونوا قادرين على تحمل المكان أو أهله كما لم يكونوا مستعدين بالمطلق لاستساغة الثقافة البدائية لريف العراق وتذوقها. كان بعضهم يتصرفون كحمقى أمريكيين تماماً كما كان العراقيون يرونهم. نموذجياً درج الجنود على وصف جلابيب الرجال بـ "فساتين رجالية"، والرجال أنفسهم، بصرف النظر عما إذا كانوا قد استحقوا اللقب أم لا، كانوا يُعطون عنوان **الحجي**. وبالنسبة إلى العراقيين فإن **الحجي** كان رجلاً سبق له أن زار مكة، إلا أن الجنود الأمريكيين لم يكونوا يأبهون بمثل ذلك التمييز. فأي عراقي مقترب من نقطة تفتيش لم يكن في الغالب سوى "**حجي** في فستان رجل": كثيراً ما كنت أنزعج من أسلوب العديد من الجنود والبحارة (لا يلبث المرء أن يتعلم، وبسرعة، أن عليه ألا يهين البحار بإطلاق اسم جندي عليه أو عليها) في تعاملهم مع المدنيين العراقيين، ساخرين من ثيابهم، من لغتهم، من طعامهم، من نمط حياتهم. لم يكن الأمر كله إلا مزاحاً ونوعاً من المداعبة البريئة. غير أن مثل هذا السلوك لم يكن مؤهلاً لكسب القلوب والعقول. فرؤية طريقة تعاملهم مع العاملين العراقيين، وبعضهم ضباط سابقون في الجيش أعلى مرتبة من الجنود الأمريكيين الذين كانوا يدفعونهم باحتقار من جهة إلى أخرى، كانت تسبب قدراً استثنائياً من الألم. كنت أستطيع رؤية الخزي المنعكس على وجوه العاملين عندنا، فأتقاسمه معهم.

في الوقت نفسه كنت متفهمة بوضوح تام أن الجنود لم يكونوا قادرين على التمييز بين الأخيار "الأوادم" من جهة والأشرار، الأوغاد من الجهة المقابلة. فأي وغد أو "أزعر" كان بوسعه أن يلبس ثوب "آدمي" محب للخير ويقترب من شاحنة زنتها سبعة أطنان ملأى ببحارة ويفجر العربة فتكون العواقب كارثية. كان الجنود يخلعون الأبواب بحثاً عن الأسلحة لأن المتمردين ومؤيدي صدام ذابوا في البوتقة السكانية المدنية، ولم يكن الأخيار "الأوادم" في الكثير من الأحيان مستعدين لكشف الغطاء على الأشرار واقتناصهم أو نبذهم. في ظل صدّام أتقن الناس فنون غض النظر والتعامي، فنون الاهتمام بأمورهم الخاصة دون غيرها، فنون

تجاهل صرخات استغاثة جيرانهم. لو ذهبت إلى مخفر شرطة بحثاً عن أحد أفراد العائلة لكان احتمال تعرضك للاعتقال أنت أيضاً وارداً بقوة. كانت القوات الأمريكية دائبة على اقتلاع المهاجمين في ظل ثقافة "كل عنزة معلقة بكرعوبها" هذه. وقد ظلت تحاول أن تفعل ذلك بوصفها قوات غريبة، أجنبية. وعلى الصعيد نفسه فإن الغربيين لم يكونوا إلا غربيين بنظر المتمردين والصدّاميين. ففي الحروب ليس ثمة أي مجال لتحري التمايزات، لدى أي من الطرفين المتحاربين.

ومع ذلك فإن جنوداً التقيتهم كانوا يحاولون بالفعل أن يتبينوا ذلك القطاع من الحرب المصطبغ باللون الرمادي، المتأرجح بين الخير والشر، بين الصديق والعدو. قال الاختصاصي ارك مُلكي من دَلاس، عنصر الخدمات الطبية في فوج كيسي، منحنياً فوق محرك إحدى السيارات بحثاً عن متفجرات: "أنا لا ألومهم. لو قام بعض العراقيين الطائشين بإساءة التصرف في بلدي، لما ترددت في زرع بعض الألغام في طريقهم أيضاً. أعتقد أن المشكلة صعبة، إلا أنني لا ألومهم. نحن في بلدهم." السقف وباب السائق للسيارة التي كان مُلكي يعاينها كانا مفقودين مما دفع الجنود إلى الضحك حين تدحرجتْ إلى نقطة التفتيش. لم يكن الجنود قادرين على لتواصل مع العراقيين الذين دعوهم بالإشارة إلى الاقتراب من نقطة التفتيش، لعدم وجود مترجمين. علمتهم كلمة سيارة مشيرة إلى واحدة تماماً كما سبق لسائقنا فلاح أن علمني.

قد تكون الخدمة في حواجز السيارات إحدى أكثر المهمات المطلوبة من الجنود في العراق صعوبةً وبعثاً على الملل. غير أن من شأنها أن تكون أيضاً إحدى أكثرها خطراً. فالجنود مكشوفون بلا غطاء باستثناء ستراتهم الواقية، عرضةً لخطر الهجمات وسيارات الانتحاريين المفخخة.

لم أكن قد سألت عما كنا نفعله لدى انطلاق الفوج ذلك الصباح. قبل الفلوجة، ربما كنت قد سألت طناً من الأسئلة، ثم قدرت مدى خطورة المهمة

ووازنت بينها وبين قيمة القصة التي كنت سأحصل عليها. كان ذلك متأصلاً في أعماقي جراء الكتابة في بغداد. لم نكن نغادر لمجرد أداء مهمات إعلامية عشوائية دون حساب. كنا نزن الأمور. أما في الفلوجة فكنت قد توقفت عن التزام الحذر. ذلك الجزء من دماغي المتخصص بفبركة الخوف انطفأ ببساطة، وأنا الآن، واقفة في الميدان مع الجنود، مكشوفة وآملة ألا أتعرض للنسف من قبل أحد انتحاريي السيارة المفخخة، أتساءل عما إذا كان ثمة وقت، أي وقت، للراحة. كنت أتسائل عما إذا كانت الفلوجة قد بالغت في تصليبي. لقد أدمنت ارتداء السترة الواقية، عبء العشرين رطلاً الذي أضافته إلى جسدي. أصبحت أضع نظارات خاصة مثل الجنود ـ جهاز العين كما يسمونها. كان يفترض أنها تقي من الشظايا الفاقئة للعين، وكثير من قادة الأرتال لم يكونوا ليسمحوا للمرء بالسفر معهم دون جهاز للعين. داخل الهمفي، كنت أرى شريطاً ضيقاً من المشهد العابر. درجت على الجلوس في الخلف دائماً، مُقْحَمَة عادة مثل غرض إضافي مدسوس بين البنادق وصناديق الذخيرة. أحياناً كنت ألتقط فوارغ الطلقات المغطية للأرضية وأدسها في جيبي ـ هدايا للصغار في الوطن. كانت العربات تفوح برائحة العرق والديزل، برائحة ورشة ميكانيكية متنقلة لم تتم تهويتها جيداً بعد صيف طويل. كنت جالسة حيث أنا متسائلة عما إذا كانت جرأتي، أو حالة حذر جديدة، إشارة إلى أنني في طريقي إلى أن أصبح مراسلة أفضل، أو إنساناً مختل العقل. بدأت أحس بأن الجمع بين المراسل من جهة والإنسان من الجهة المقابلة بات متزايد الصعوبة.

كنت المراسلة الوحيدة في بعقوبة، وحدي في مقطورة صغيرة عند طرف **جواد الحرب**. بعد معركة الفلوجة كان ضابط علاقات عامة في قاعدة الفلوجة قد التحق بوحدات اللواء الثالث التي كانت قد شاركت في اجتياح الفلوجة، هو الكابتن مارشال جاكسون، قد دعاني إلى زيارة بعقوبة. ما إن وصلت إلى هناك حتى تسلقت تلة أكياس الرمل المكومة أمام المقطورة لتثبيت طبق القمر الصناعي

على السطح. أدخلت الكبل في المقطورة عبر فراغ شرطي جلفطة ناقص حول الباب. كنت سعيدة بالهدوء، بعدم الاضطرار إلى سد أذني ليلاً بغية إغراق شخير رفاقي في الخيمة. لمدة دامت نحو ستة أسابيع كنت قد غيرت ملابسي داخل كيس النوم. أما الآن فقد وقفت عارية، نشوى في مقطورتي الخاصة، تاركةً الهواء الندي ينعش جسدي. شعرت كما لو كنت أرقص. كان الجو شديد الهدوء في بعقوبة. لم تكن القاعدة قد تلقت أي ضربة مباشرة منذ بضعة أسابيع، مع أن البلدة والقرى المحيطة كانت بؤراً ومخابئ موبوءة بالمتمردين. في الأسبوع الذي سبق مجيئي قامت عصابات من المتمردين بالإغارة على عدد من مخافر الشرطة في بعقوبة وإحدى القرى القريبة. ردت طائرات حربية أمريكية بإسقاط قنابل ذوات 500 رطل إنجليزي على مواقع المتمردين، وقُتل أربعة جنود أمريكيين وعشرون متمرداً في اشتباك دام ساعتين.

أطلعت الكابتن جاكسون على رغبتي في كتابة بضع قصص خلال الأسبوع الذي سأقضيه في مسرح المعركة، في قاعدة **جواد الحرب**. محجمة عن العودة إلى بغداد، إلى خوفنا الجماعي المكثف هناك، كنت شديدة الرغبة في أخذ قسط من الراحة. كنت أشعر بأنني أشبه بهدف عشوائي مع الجيش. إذا ما حدث أي شيء، فإن الأمر لم يكن موجهاً ضدي مباشرةً. أن يكون المرء هدفاً محدداً ـ أن يكون مطلعاً على حقيقة أن هناك أناساً كامنين، متربصين للانقضاض على صحفية غربية ـ شكَّل مصدر نوع أكثر مباشرة من الإرهاب والرعب النفسيين. أقله كنت أستطيع ممارسة رياضة الجري، ارتداء القمصان الضيقة والسراويل الفضفاضة، تناول الطعام المألوف، واعتمار قبعة الصيد العائدة لأبي بدلاً من غطاء الرأس، في القاعدة العسكرية. لم يكن جاكسون ملحاحاً في دفعي إلى الكتابة من أجل الدعاية لأفعال جنوده. هو نفسه كان قد شهد معركة الفلوجة وعاشها من أولها إلى آخرها أيضاً. كلانا كنا مرهقَيْن، جسدياً وذهنياً. كان جاكسون شرطياً مزوحاً، خفيف الظل، من أوهايو، حديث الزواج، موشكاً على

إنهاء خدمته الاحتياطية البالغة سنة. لدى قيامه بتقديمي إلى القيادة الأعلى، سأل بعض الضباط عن المدة التي كنت سأبقاها، علق جاكسون ساخراً: "إلى أن تعثر على زوج!" وقد كرر العبارة ثلاث مرات قبل أن أطلب منه شطبها.

حين كنت مع الجيش كنت متمتعة بنفس فُرَص الاتصال بالجنود التي يتمتع بها أي مراسل ذكر، كما أن أياً من الجيش أو المارينز لم يكن يقيدني بأي قيد. كنت قادرة على الذهاب إلى جميع الأمكنة وعلى فعل ما يحلو لي. غير أنني بقيت على الدوام شاعرةً بشيء من الانفصال، بشيء من الإحساس بأن الجميع كانوا على علم بوجود امرأة في الغرفة. كانوا يعتذرون حين يشتمون قائلين: "آسف مدام!" بداية درجت على تقديم هذا الرد ذي العيار الثقيل: "لا يهمني كـ... أم سبابكم!" كانوا ينكفئون أمام سوقيتي. كنت امرأة. وقد تعين علي أن أتحلى بقدرٍ من الخشونة يكفي لجعلي استخدم قنينة الفاتوريد خازوقاً في سيارة متحركة وسط ثلة من الشباب من حولي، ولكن مع الحرص على التحكم بلساني.

جنود المارينز كانوا استثنائيي الخشونة. قال لي رقيب من سلاح المدفعية في الفلوجة إن السحاقيات فقط يلتحقن بالجيش. نظرت إلى وجهه لأرى ما إذا كان مازحاً. وجدته جاداً. ثم استطرد المدفعي ملقياً ما يشبه الخطاب حول عدم انتماء النساء إلى الجيش، عدم تحليهن بما يكفي من الخشونة، عدم كونهن ذوات علاقة بأي ساحة حرب من قريب أو بعيد. ربما نسي أنني امرأة في ميدان حرب، ماشية في طريق ساحة الحرب معه كتفاً إلى كتف. أحياناً بدت المرأة المتعايشة مع حشد من الجنود أشبه بأنثى في بيت للرهبان. إن البذاءة الإباحية الرجالية المميزة للجيش لم تكن تزعجني في الحقيقة. كنت أتغافل عنها، أتكلف الصمم إزاءها. لم أكن قادرةً على التظاهر بأني محاربة، بامتلاك تلك الذهنية القتالية، لأنني لم أكن كذلك، ولم يكن يتعين علي أن أكون. ما كان يزعجني هو أن كوني امرأة كان يصعّب تواصلي مع الجنود، فيؤدي الأمر إلى أن أجد صعوبة في سرد قصصهم. من المؤكد أنه كان عندي بعض ممن كنت أستطيع التحدث معهم،

لأنهم كانوا، ببساطة، متلهفين للكلام مع أنثى كنوعٍ من التغيير. غير أنني لم أكن أحظى، في الغالب، إلا بنظراتٍ وتحديقاتٍ بلهاء غير ذات معنى لدى طرحي للأسئلة الصحفية المعهودة. دائماً كنت أشعر بأنني ملزمة بإثبات شيء ما. لحسن الحظ لم تكن هذه هي الحال مع القادة، الذين كانوا يميلون إلى رؤيتي عبر عدسات محايدة جنسياً.

ثمة خرافة دائمة التكرر تزعم أن المرافَقة تحد من فرص الوصول إلى أي قصة لأن الجيش يملي علينا ما نكتبه، لا يرينا إلا ما يريدنا أن نراه. تجربتي تدحض تلك الخرافة. غير أن ما اكتشفته هو أن القصة كانت تزداد اكتمالاً حين كنت أستطيع العزف على الوترين كليهما، حتى لدى تعويلي على مُخْبِر عراقي للحصول على الوجه المدني للمسألة وأنا مع الجيش. فمخبرنا داخل الفلوجة في أثناء المعركة، مثلاً، تحدث عن أن الجيش كان يستخدم أسلحة كيميائية لإذابة الناس. وقد استند في كلامه إلى تصريحات صادرة عن أطباء وصفوا علاج أشخاص كانت جلودهم تقشر وتنسلخ وتتساقط. سارعت إلى أخذ تلك المعلومات إلى الجيش الذي ما لبث أن أكد أنه كان يطلق رشقات فوسفورية بيضاء تحدث حجاباً نارياً يتعذر إطفاؤه بالماء. وهكذا فقد كنا قادرين على اختبار التقارير بمقارنة تصريحات الشهود مع كلام الجيش.

كنت أفضل اصطحاب مترجمي الخاص لدى مرافقتي للجيش. فمترجمونا كانوا إعلاميين وحريصين على الترجمة الحرفية. في حين أن كثيرين من المترجمين العراقيين العاملين مع الجيش الأمريكي بدوا ميالين إلى إخبار الجنود بما كان هؤلاء راغبين في سماعه، أو عازفين عن نقل أي معلومات "سلبية". كانوا يرتدون الزي العسكري، وشديدي الحماسة، بأكثريتهم، للجيش الأمريكي، مسارعين إلى الدفاع عنه إذا ما حاول المدنيون أن يبوحوا بالحقائق. ومن خلال إصراري على اصطحاب أحد مترجمي **البوست**، كنت أضمن الحصول على صورة أوضح، إدراك أكثر دقة، للتفاعل بين القوات الأمريكية والمدنيين. وما لبث

هذا أن زاد ضرورةً مع قيام العنف المتنامي بجعل السفر المستقل إلى العديد من أجزاء العراق مستحيلاً. في الكثير من الحالات لم يكن أمامنا سوى خيار المرافقة وإن لم تكن الطريقة المثالية. لعل الأسلوب المثالي هو الوقوف على وجهَيْ القصة كليهما، من منظور الجيش من ناحية ومن منظور المدنيين من الناحية المقابلة. عند الاضطرار إلى المرافقة، دون القدرة على الانفصال عن الركب والابتعاد التماساً لامتلاك القدرة على وصف الموقف في الطرف الآخر المستهدف بالمدفع، كان يتعين علينا أن نعول على مخبرينا الموجودين والعاملين بين صفوف أهالي المناطق المستهدفة. في الحقيقة لم يكن ثمة جديد حول النقد الموجه إلى المراسلين المرافقين. وبوصفنا مراسلين من هذا النوع، فإن علينا باستمرار أن نتحدى أنفسنا، أن نسعى إلى التأكد من نجاحنا في النأي بالنفس، ألا نبالغ في الالتصاق بوحداتنا، أن نواصل طرح الأسئلة، نعم الأسئلة الكبيرة عن المعركة عموماً، لا عن جانبها الشخصي، الصغير فقط.

في إحدى الدوريات ببعقوبة مع فصيلة كيسي، ذهبنا في مهمة تفتيش بعض عناصر الحرس الوطني العراقي الذين كانوا يتولون إدارة نقطة تفتيش سيارة خارج المدينة مباشرة. لم يكن معنا أي مترجم، وقد وجد الجنود صعوبة في التواصل مع العراقيين الذين بدوا دائبين على التلويح سامحين للسيارات بالمرور دون تفتيشها. هناك في بغداد وواشنطن، كان قادة عسكريون أمريكيون يعبرون عن قدرٍ كبير من الثقة بقوات الأمن العراقية. غير أن كيسي تعين عليه أن يوقظ بعض الجنود العراقيين الذين كانوا يُغطّون في النوم بدلاً من العمل على توفير الأمن. كانت هذه فائدة المرافقة: لم يكن الجيش قادراً على إخفاء الأخطاء السابقة واللاحقة. كان بوسع الساسة في واشنطن أن يتحدثوا ما شاؤوا عن مدى روعة سير الأمور، غير أن من كان على الأرض في العراق، من هو في سيارة همفي مع الجنود، لم يكن يستطيع أن يخفي حقيقة أن الجنود كانوا باستمرار يتعرضون للهجوم بأدوات تفجير مرتجلة، مصنعة محلياً. في أثناء

تجوالي بسيارة الهمفي مع كيسي وفريقه، رأيت أطفالاً يرسمون إشارات الترحيب بالجنود بابهاماتهم، كما سمعت طرقات الحجارة المقذوفة من قبل صغار آخرين تعبيراً عن استقبال آخر للأمريكيين. لم أشعر قط أن الجيش كان حريصاً على دفعي في هذا الاتجاه أو ذاك. لم يتم إخضاعي لأي رقابة قط. غير أنني لم أكن أشعر دائماً بأن المعلومات متاحة وفي متناول الأيدي. أما في قاعدة **جواد الحرب** فكان الوضع مختلفاً. فالكولونيل دانا بيتارد، قائد الفوج، كان يدير ورشة مفتوحة. تحلى بالصدق بشأن تقويمه لجملة التحديات الموجودة في منطقة ديالة، وهي كثيرة بالتأكيد. ففي ظل صدّام لم تكن بعقوبة إلا حامية، قلعة عسكرية. فاللواء المدرع الـ 41 من الحرس الجمهوري كان متمركزاً هناك، وبعد الغزو الأمريكي سارعت الوحدات إلى تفريغ القاعدة من الأسلحة والاختفاء عبر الذوبان في البوتقة السكانية. وحين بادرت حكومة الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة إلى حل الجيش العراقي، انقلبت بعقوبة إلى مدينة جنود سابقين عاطلين عن العمل وصدّاميين مع كميات هائلة من الأسلحة التي باتت موجهة الآن نحو القوات الأمريكية والعراقية.

لم أكن، بكل بساطة، قادرةً على تسخير رابطي الوحيد مع الجنود ـ وهو رابط كان من المحتمل أن أتمكن من توظيفه من أجل دفعهم إلى أن يكونوا صريحين معي ـ أعني رابط الانتماء الوطني المشترك. صحيح أننا، جميعاً، كنا أمريكيين، غير أنهم كانوا جنوداً في حين كنت أنا صحفية. إن الاضطلاع بدور مواطن أمريكي في العراق كان يعني نوعاً من إعلان بيان سياسي. من المعروف أن الجنود دائمو الاحتضان لجوازات السفر والعلم الوطني. أما أنا الصحفية فلم أكن مثلهم على هذا الصعيد. فخروجي إلى الملأ بهويتي الأمريكية في العراق، إضافةً إلى رغبتي في التحلي بالحياد فيما أكتبه، كان من شأنه أن يفضي إلى قتلي. أنا لم أصبح إعلامية لخدمة وطني أو بلدي؛ صرت صحفية من أجل خدمة القصة، الحدث. فالموت في سبيل الوطن لم يكن ليرقى إلى مستوى الموت

في سبيل الحقيقة من حيث النبل. من المفهوم أن من الأسهل بكثير بالنسبة إلى فرسان الوطنية أن يلتحقوا بركب جوقة مداحي القوات الأمريكية بهوياتهم الأمريكية الصارخة. غير أن من الأقل يُسْراً تأييد إعلاميين تكون وجهات نظرهم مفترضة نموذجياً ولكنها خافيةً أو مضمرة عموماً، إعلاميين تكون مهمتهم أقل بريقاً بما لا يقاس، أقله بالمعايير الوطنية.

من الداخل، بقيت أمريكية، شاعرةً بالامتنان لذهابي إلى العراق باسم إحدى قيم بلادي الأساسية - قيمة حرية الصحافة. أما من الخارج، فإذا بدا للجمهور الأمريكي أنني كنت قد تخليت عن وطني، فكثيراً ما كنت أشعر، أنا أيضاً، بأن وطني كان قد تخلى عني. باستمرار كنت أتعرض لصفعات القراء الذين دأبوا على بعث الرسائل الإلكترونية متهمين إياي بمعاداة أمريكا لعدم قيامي بكتابة مقالات مُشْرقة عن تحرير العراق وعن محرريها. خلال الأشهر التي قضتها هناك، سمعت كثيراً من النقد حول عزوف الصحافة عن الكتابة عن الأشياء الجيدة والإيجابية الحاصلة في العراق. غير أن الحقيقة هي أننا لم نقصر على هذا الصعيد. أعلم مدى الإحباط الذي يصيب الجنود حين يرون ويقرؤون طوفان الأنباء السلبية المزعومة متدفقاً من العراق وهم عاكفون على الكدح في القرى، ساعين إلى تحقيق السلم، جاهدين من أجل دفع الأمور إلى الأمام. من بعض استحكاماتهم، بدت الحياة متحسنة بالنسبة إلى العراقيين. غير أن المشكلة هي أن الاستحكامات هي استحكامات - نوافذ ضيقة لا يُرى منها إلا قدر محدود جداً من التقدم العام.

من "مَرْصَدي" أنا، كنت أستطيع أن أرى، على نحوٍ أوسع وأشمل، أن وتيرة التقدم كانت بطيئة، أن أجزاء كبيرة من البلاد كانت تتفجر عنفاً، مع العشرات بل المئات من الهجمات يومياً. لم يكن هذا "مرصداً" موضوعاً في بار الفندق. لقد كان "مرصداً" مجازياً كان يوفره لي التحدث مع مراسلين آخرين. كانت قدرتي على التواصل مع المراسلين الآخرين محدودة، خصوصاً بعد وقف السفر

الخارجي تجنباً لخطر التعرض للاختطاف صيف 2004. كانت قصصي تأتي من الشارع، من مشاهداتي المباشرة، من تغليب الإصغاء على الكلام، من التركيز على الملاحظة ببساطة. ذات مرة سألني أحد مصوري الجيش الميدانيين عن سبب إقلالنا من الكتابة عن المدارس التي يساعد الجنود في إعادة بنائها. أوردت قائمة المقالات الخاصة بإعادة البناء التي كنا، زملائي وأنا، قد كتبناها خلال العام الذي أعقب الحرب. تمثلت المشكلة بأن الوصول إلى تلك المدارس كان، مع حلول النصف الثاني من عام 2004، قد أصبح بالغ الخطورة. قلت: "أحمل في رأسي الفكرة التي تحملها أنت في رأسك لدى خروجك من القاعدة كل صباح. آمل أن يشكل ما أقوم به من عمل في ذلك اليوم إسهاماً ما لأنني لست واثقة من أنني سأعود إلى فندقي سالمة. لذا فإن علي أن أقرر ماهية القصة التي تساوي حياتي. إذا كان الخيار بين تغطية نبأ قنبلة مرعبة قاتلة لسبع وأربعين مدنياً عراقياً أو عملية توزيع أقلام رصاص في إحدى المدارس، فسوف أختار الانفجار." في ذلك السياق، بدا متفهماً. لم نكن سوى إنسانين يحاول كل منا أن يهتدي إلى معنى ما لوجوده في مكان بائس ومشؤوم حقاً.

حين يبقى الإعلام عاكفاً على مواصلة الكتابة عما يتم اقترافه من أخطاء، فإن وجودك يبدو عديم الجدوى. أدركت ذلك. كنت أدركه كلما بعث أحد القراء رسالة إلكترونية لاذعة تتهمني بتشويه الحقائق، بالكسل واللامبالاة، بكتابة قصة العراق من بار فندقي. حين تكون هناك، مخاطراً بحياتك، فإنك تريد أحدهم، إياً كان، أن يتفهم سبب وجودك هناك. بالنسبة إلى كثيرين من الجنود الذين التقيتهم في العراق، لم تكن المسألة مسألة واجب فقط. كانوا راغبين في جعل الحياة أفضل بالنسبة إلى الشعب العراقي، وكانوا شاعرين بنوع عميق من الالتزام به. كذلك كنت أحس بالتزام عميق مماثل بالحقيقة، دون الاهتمام بإرضاء الناس. لا يبدو الأمريكيون مهتمين بالحقائق قدر اهتمامهم بأخبار مصفاة ومغربلة تؤكد قناعاتهم أو تثبت صحة ما يكرره وُعّاظُهم المفَضَّلون. في

مواجهة الأدلة الدامغة، إذا لم تكن هذه متناغمة مع سياساتهم، يصرون على تحدي الرسالة والرسول. لم أكن أملك رسالة أوصلها من العراق سوى ما رأيته، ما عشته، وما سمعته. غير أن بعضاً من قادتنا صنفوني، استناداً إلى القصة الرائجة، إما مع الحرب أو ضدها، إما مع الاحتلال أو ضده، إما مع الجنود أو ضدهم.

بعد قصة عن اقتحام أمريكي لأحد البيوت الخاصة ببغداد، حيث أهان الجنود عراقياً أمام أمه، دافعينه إلى الجنون وكيل الشتائم للأمريكيين، سارع قراصنة الإنترنت إلى الهجوم مطلقين سيلاً من التعليقات الشبيهة بالتالية المشيرة إلى قصتي بوصفها "مقالة بقلم **جاكي سبنر** (نعم هذا اسمها ـ وليس لقباً مناسباً لها كما ينبغي أن يكون)." تابع القرصان روجر إل. سايمون يقول إن "أمثال جاكي سبنر في العالم باتوا بحاجة لأن يتبلغوا (بلغة كثيراً ما لا يعرفونها... أننا، نحن مستهلكي الأخبار، متروكون دائماً نتصارع وحدنا مع أهواء الكتاب وأمزجتهم." ومع تواصل رتل القراصنة تدخلت لولا ـ يميل القراصنة إلى التعريف بأنفسهم بالأسماء الأولى فقط ـ قائلة إنها لم تفاجأ بالمادة لأن "هذا هو ما يحدث عندما تقوم الإدارة بتقليص الميزانية المخصصة للمراسلين الخارجين واختزالها إلى مجرد فتات، فتمتلئ الساحة بمثل هذه القمامة. أين هم أفضل المراسلين؟" يأتي الرد من رتشارد الذي يقول: "ربما كانت -عاملة- تحتها من فرط الرعب وخائفة من الخروج إلى شوارع بغداد، فالتقطت هذه القصة خلال ساعات عبثها في بار الفندق."

أثارت القصة حفيظة الناس لأن بطل المقالة، وهو رجل يدعى إمام، انزعج من قيام جنود بوضع القرآن فوق مجموعة من الكتابات الماجنة التي اكتشفوها تحت سريره. في القصة أخفقت في تقديم التفسير المقنع لمدى هول مثل هذه الإساءة إلى أي مسلم ـ إساءة وضع نصه المقدس فوق مواده الإباحية، بل واقتراف ما هو أفظع من ذلك عبر إذلاله وإشعاره بالخجل أمام أمه. ظن القراء أنني

اصطنعت القصة. والحقيقة هي أنني اكتشفت ما حدث لأن إماماً هذا كان جاراً لأحد مترجمينا. وقد ظل إمام مؤيداً للأمريكيين حتى ليلة الاقتحام، حيث ما لبث لقاؤه الأول مع جنود أمريكيين أن أفضى إلى جعله عدواً للاحتلال. وهذا النوع من الحوادث تكرر مرات كثيرة في طول العراق وعرضه، حيث كان الجنود يتفننون في تحطيم القلوب بدلاً من كسبها عبر التصرف كغزاة. أخفق القراء الذين عارضوا القصة في التقاط الرسالة. أما تهمتي الأخيرة فقد تمثلت في تخرجي في جامعة بيركلي. قرر جي أن "جاكي سبنر تبدو مثالاً نموذجياً لأناس مشدودين إلى الصحافة النخبوية. إنها خريجة بيركلي مهتمة بسياسة الهويات والمظالم العرقية ـ فما نوع الشكل الذي يمكنك أن تتوقع منها إضفاءه على ذلك التصور القابل للطرق والقولبة، أي الواقع؟"

في زحمة هذه الهجمات، بادرتْ قاطعةُ طريق أخرى تدعى شارون جونسون ـ وهي أم أحد الجنود وشرطية احتياطية متطوعة من مينسوتا ـ إلى إغراقي بعدد من رسائل التشجيع الإلكترونية. كان ابن شارون آل يخدم في العراق مع حرس نيوهامبشاير الوطني. وقد كتبتْ تقول: "أرجو أن تكوني قادرةً على تجاهل الهراء الصادر عن اليمين اليوم. أنا واحدة من اليمينيين. غير أنني مقتنعة بأنهم لا ينصفونك." رسائل شارون الإلكترونية، التي استمرت بعد عودة ابنها إلى الوطن في كانون الثاني/يناير ومازالت متواصلة، ساعدتني على الصمود.

كلما قرأت الهجمات الواردة على مواقع الإنترنت. ارتفع ضغط الدم عندي وشعرت كما لو كنت موشكة على الاختناق بالكلمات. بدا لي أن الجمهور الأمريكي لم يكن مدركاً لسبب وجودي في العراق. لا يعني ذلك أنني كنت راغبة في الحصول على مديح هذا الجمهور. مازلت أذكر لافتة على باب جريدة كليتي حملت عبارة: "يقاس مدى نجاح أي جريدة بعدد الناس الذين يبولون عليها." لست مستعدة للهرب من القصص الإشكالية لمجرد أن قراصنة الإنترنت أو آخرين قد يستهدفونني. آخر المطاف، كان مبدأ حرية الكلام الذي أوفدني إلى

العراق بالذات يعطي الناس حق انتقاد ما أكتبه. فأنا فريسة مشروعة. ثمة كان ما هو أكثر من ذلك: بدت هذه الهجمات مفرطة في شخصيتها. لم تكن موجهة إلى قصتي، مقالاتي. كانت موجهة إلي، أنا جاكي سبنر، امرأة في الحرب، لها أخت توأمة، أم، عائلة هناك في الوطن تحصي الأيام يوماً بعد يوم انتظاراً لعودتي. ما الذي جعلني أكون في العراق أساساً، باحثةً عن الحقيقة، معرضة حياتي للخطر، إذا لم يكن الشعب الأمريكي واثقاً بما كنت عاكفةً على القيام به وإنجازه؟ كان بوسعي أن أتلقى النقد وأنا في بيتي بواشنطن، على كرسيي المريح، متنعمة بحياتي المريحة. غير أن القضية كانت متقدة في داخلي حقاً وأنا في العراق.

بطرقٍ معينة، بدأت المسألة أيضاً بتفكيك لغز شخصيتي. لم أستطع الاهتداء للتهرب من أخذ الهجمات مأخذ الجد وعدّها مسائل شخصية. حاولتْ شارون وضع الأمر في سياقه. بالطبع كانت على صواب حين قالتْ: "بوصفي أم أحد حراس السجون في العراق، كنت شديدة الحساسية، بل مهووسة، إزاء انحياز وسائل الإعلام في تقاريرها عن الحرب. أنا واثقة من أن كل وأي مراسل في العراق يشعر بأنه عاكف على تحسين وضع البشرية. ما من أحد يستيقظ ويقول: -سأجعل العالم مكاناً أسوأ اليوم-. حتى الإرهابيين ليسوا استثناء. اعلمي، ياجاكي، أنك مقحمة في هذا المرجل الحقيقي الذي يغلي بفيض من العواطف الجياشة لأناس متلهفين لـ "دعم القوات"، وهم بأكثريتهم، أبناؤهم، إخوتهم، أزواجهم، أمهاتهم، وأولادهم هنا في الشارع. لا يستطيعون أن يميزوا ما إذا كان دعم القوات يعني ترسيخاً للحرب أم احتجاجاً عليها التماساً لعودة الجنود إلى الوطن. تضطلع وسائل الإعلام بدور كبش الفداء الملائم على صعيد التنفيس عن العواطف المحتقنة." نعم، كانت محقة. ففي أثناء فيتنام، دأب الجيش والجمهور، إلى حدود معينة، على تحميل وسائل الإعلام مسؤولية التغطية السلبية للحرب. اعتقد الجيش أن الكتابات الصحفية النقدية كانت سبب خسارة الحرب، مما

أرسى أساساً لنوع من انعدام الثقة المستقبلي بين الإعلام والجيش، بين الجيش والجمهور. أما في ساحة الحرب، في قلبها، فقد كان صعباً أن أفصل نفسي عن **الإعلام**. مع القوات لم أكن أشعر كما لو كنت جزءاً من **الإعلام**. كنت أشعر بكياني، بشخصيتي، بأنني مراسلة باحثة عن الحقيقة عليها واجب إيصال تلك الحقيقة إلى قراء لم يكونوا، أحياناً، مقتنعين بضرورة الحقيقة، أو معجبين بطبعة الحقيقة التي شاهدتها أنا. في العراق، لم أكن متوفرة على دفاعاتي المألوفة ـ أهلي، أقاربي، هدير المحيط، متعاظماً إلى أن يهدأ صوت خفقان قلبي متسارع النبضات ـ القادرة على التعامل مع الانتقادات الموجهة إلى عملي.

لعل أحد أكثر القادة إثارة للإعجاب الذين قابلتهم في العراق كان بيتارد، قائد **جواد الحرب** (الوور هورس). هو ومعاونه المقدم مايكل تود وفّرا لي إمكانية الوصول إلى كل ما أردت أن اكتب عنه. كان الرجلان يبدوان متفهمين **لوسائل الإعلام** ـ مهما عنى ذلك العنوان الجماعي ـ متفهمين لسبب وجودنا هناك، لضرورة هذا الوجود.

كان بيتارد أحد عشاق رياضة الجري، ويوم عيد الشكر لعام 2004، حرص على تمكين جنوده من الاشتراك في مسابقة الديك الرومي، ذلك السباق البالغ خمس كيلومترات الذي يدشن الأعياد في طول الولايات المتحدة وعرضها. لم أكن قد غبت عن أي سباق ديك رومي منذ ما يقرب العقد، وشعرت بقدرٍ كبير من النشوة لتمكني من الاشتراك بواحد في العراق. بدأ السباق مثل أي سباق آخر، بطلقة مسدس وصفع أخفاف التنس المباغت للأرض الصلبة. كانت الشمس قد بدأت للتو تطل من فوق الأفق القرمزي، وكان الجو بارداً. أشبه ببرودة نيو انجلند. نسق العدائين، وأكثرهم في "شورتات" سوداء وقمصان رمادية مناسبة مع سترات واقية من الريح، انحنى حول زوجين من أبراج الحراسة، صف من أكياس الرمل، مجموعة من الحوامات العراقية الصدئة، ومستودع الذخيرة. حول دائرة محيطها 3.1 ميلاً ركضنا ـ متقدي الرئات، خافقي القلوب. في مكان

يشهد انبثاق الموت فجأة من خلف المنعطف، لم نركض لأي سبب عملي سوى الرغبة في الإحساس بأننا أحياء. أرعبني أن أكون الأخيرة، مهزومة أمام هؤلاء المقاتلين المخضرمين. لم يكن ثمة ما يجعلني أقلق. فقد أكملت الدورة وأنا قريبة من أول الرتل، جاريةً بسرعة محترمة بلغت ميلاً كل سبع دقائق. بعد السباق، مشيت عائدة إلى مقطورتي، غير متلهفة إلى -دوش- بارد. لم يكن حمام مقطورتي النسائية مزوداً بالماء الساخن، كما لم يكن، على ما بدا، ثمة أي مرجع لتلقي الشكوى، لأن عدد النساء في القاعدة كان ضئيلاً جداً. شغَّلت المدفأة في مقطورتي وانقضضت على كمبيوتري لإرسال تهاني عيد الشكر إلى أهلي هناك في الوطن. لاحظت أنني تلقيت رسالة إلكترونية من الرقيب الذي كان قد خطب لمى وبقيا خطيبين إلى أن اكتشفتُ أنه كان متزوجاً. فكرت: **يا للغرابة! ما الذي جعله يتصل بي يوم عيد الشكر؟!** فتحت البريد الإلكتروني. في الواقع كان الرقيب يزودني بنسخة من رسالة إلكترونية موجهة إلى شقيق لمى، هذا نصها: "العزيز علي! إذا كان ما أخبرتني به صحيحاً، فما عليك إلا أن تطلب من هذه المراسلة (جاكي سبنر في **الواشنطن بوست**) العمل على إجراء تحقيق فوري الآن. حادث غير مألوف. يجب ألا يتوفر أحد على مسدس ليصوبه إلى رأس أحد الأشخاص. عرفت جاكي لأن لمى زودتني بمقالتها في **الواشنطن بوست**. طلبت من آخرين أن يساعدوا في الأمر. سأتصل بك غداً في الصباح." انقبض قلبي. ما الذي كنت أقرؤه؟ ما الذي كان قد حدث للمى؟ دحرجت محرك الشاشة ونظرت إلى رسالة علي الإلكترونية الأصلية: **الرجاء... اتصل بي على هاتفي الآن. لمى ماتت. أرجو أن تتصل بي بسرعة!**

شهقت. هل كان الخبر صحيحاً؟ هل ماتت لمى فعلاً؟ طلقة في الرأس؟ أين؟ كيف؟ لماذا؟ اتصلتُ بعلي. لم تكن إنجليزيته أفضل بكثير من إنجليزية أخته. فهمت أن لمى كانت قد ماتت بطلقة قبل يوم واحد، في 24 تشرين الثاني/نوفمبر، في قاعدة الجيش التي كانت تعمل فيها مترجمة. كان علي لا

يزال مشغولاً بالسعي لإخراج جثتها من المشرحة في المنطقة الخضراء. لم يكن يعرف ما كان قد حدث. أبلغه الجيش بأن لمى كانت تلعب بمسدسها حين انطلقت الرصاصة التي قتلتْها. رفض علي تصديق الرواية. اتصلت برقيب في الجيش من معارف لمى. أكد الرقيب نبأ وفاتها وأضاف مؤكداً أنها كانت مكتئبة وانتحرت. شعرت بأني موشكة على الاختناق. كنت أعلم أن لمى كانت مكتئبة لدى العودة من الأردن غير أنني لم أستطع تصور إقدامها على الانتحار. كانت تملك مسدسها الخاص وكانت تتقن أسلوب استخدامه. كان أخوها قد علمها. بدت الرواية غير ذات معنى. اتصلت بعلي ثانية، وأنا أحاول أن أبقى متماسكة. "كيف هي أمك؟ كيف حال ساره؟".

"لم أخبرهما. لست قادراً، بعد، على إخبارهما."

"آه يا علي! كم أنا حزينة! كانت لمى مثل أختي. سأكون في بغداد سريعاً، أعدك، سأساعدك على اكتشاف ما حدث."

بعد إنهاء المكالمة كتبت ملاحظة وجيزة عن موت لمى وأرسلتها إلى المحررين. واثقة أنا من أنني اتصلت بكلٍّ من عمر وجني لأن إخبارهما كان من شأنه أن يجبرني على الزفير، على أخذ نَفَس عميق، غير أنني لا أتذكر الكلام الذي دار بيني وبينهما. تقطيعاً لزمن النهار، أجبرت نفسي على الذهاب إلى وليمة عيد الشكر في مطعم القاعدة، أرغمت نفسي على تناول البطاطا المسلوقة المهروسة والبقول الخضراء المعلبة. بقيتْ دموعي مخنوقة، وكانت الفلوجة قد صقلتني إلى درجة أصبحتُ معها قادرة على مواجهة موتها. ينبغي لخطأ ما أن يكون قد وقع في الترجمة. لا يمكنها أن تكون ميتة. لا، لم تكن ميتة. كنت سأسوي الوضع فور عودتي إلى بغداد. كنت بحاجة إلى أن أعود، ولكن ليس بعد. كانت أمامي محطة أخرى في رحلتي الشاملة لأسوأ الأمكنة في العراق. بعد يومين تسلقت إحدى الطائرات قفزاً لمغادرة **ووركورس (جواد الحرب)** إلى **ثكنة النصر (كامب**

فكتوري)، القريبة من بغداد. من هناك تدبرت رحلة برية إلى ثكنة كالسو، قاعدة مارينز جنوب بغداد في منطقة معروفة باسم "مثلث الموت".

للحظة، وأنا جالسة على أحد المقاعد في **فكتوري** بانتظار السيارة التي ستقلني، أدركت مدى سهولة الاتصال بالشباب في المكتب ومطالبتهم بإرسال سيارة تقلني. خلال ساعة، كان بوسعي أن أكون في المكتب، واقفة تحت (دوش) ساخن، غاسلة تعب الأسابيع السبعة. السيارة المكلفة بنقلي وصلت وتوقفت، قفزت إلى المقعد الأمامي. سألت سائق الشاحنة: "هل ترغب في أن تصبح ذا شهرة؟" ساحبة دفتري من الكيس، استعداداً لتسجيل قصته.

إطلاق هذه العبارة المثيرة كان يحفز الجنود وعناصر المارينز على التحدث معي. كنت مغرمة باقتحام هذه الغرفة أو تلك والمبادرة إلى طرح سؤال: "من منكم يريد أن يصبح مشهوراً؟" تلك كانت طريقتي لإبلاغ الجنود والمارينز باهتمامي بقصصهم. ما من أحد في العراق إلا ووراءه قصة يريد إيصالها إلى شخص ما، أي شخص مستعد لأن يصغي. كنت أنا الأذن المتصلة بالأهل والأصدقاء والمؤيدين هناك في الولايات المتحدة.

العريف البحار برايان فيتالو، سائق شاحنة مكلف بنقلي مع مئات غالونات الوقود إلى **ثكنة النصر** (**كامب فكتوري**). كان يطارد الشمس إلى الأفق، وصوته الرخيم يصدح مواكباً "**المثيرة**" (**ثريلر**) لمايكل جاكسون، المنطلقة من مكبرات الصوت النقالة المثبتة على واجهة شاحنة الأطنان السبعة. بعد غروب الشمس، يخرج المتمردون من جحورهم لمهاجمة القوافل العسكرية التي تمر على القطاع الخطر من الشارع الأول الذي كنا عليه. والشاحنات الشبيهة بشاحنتنا كانت من أهدافهم المفضلة إذ تكون جارة مقطورات كبيرة سريعة العطب ملأى بالوقود سريع الاشتعال. غير أن القوافل كانت **عموماً** تعبر قطاع الخطر دون التعرض لأي ضربات مورتار، قذائف، رشقات أو قنابل، طوال بقاء الشمس في السماء - **عموماً**، لعدم وجود أي يقينيات على الطرق الخارجية.

على أرضية اللوحة الأرجوانية لمغيب الشمس، هَدَرَتْ شاحنة بيك آب على امتداد طريق فرعية مواكبة للشارع الرئيسي الذي كان فيه فيتالو الخامس في رتل شاحنات عسكرية ناقلة مؤناً إلى قاعدته الأصلية في منطقة واقعة إلى الشمال من بابل، **ثكنة كالسو** العائدة للمارينز التي كنا متوجهين إليها. دافعاً رأسه قليلاً، حرص فيتالو على متابعة البيك آب بعينيه. هل كان انتحارياً مفخخاً؟ أم هو مدني مسالم عائد إلى بيته؟ زادت سيارة البيك من سرعتها فتجاوزت واختفت وراء الأفق، وأعاد رأسه إلى وضعه الأصلي متابعاً النظر إلى الشارع الرئيس ناقراً المقود بيديه مواكبة لإيقاع الموسيقا.

كان فيتالو عضواً في فريق دعم النقل الملحق بوحدة المارينز الخاصة الرابعة والعشرين. هرباً من مخاطر الطريق المحتملة، سألت فيتالو عما إذا كان موافقاً على إجراء مقابلة معه لكتابة مادة. لم أكن أريد تبديد وقت الرحلة دون فائدة. كان فيتالو ابن العشرين ربيعاً الآتي من فريهولد النيوجيرزية والمغرم إلى حد العبادة براقص الروك البوب جوستان تمبرليك، مغنياً وراقصاً هاوياً. أفاد بأنه يطلق رأسه ليجول في أماكن أخرى حين يكون على الطريق. أحياناً يفكر بصديقته، أحياناً بالملابس التي يريد شراءها بالمرتب الذي سيحصل عليه من المارينز، أحياناً بسيارته الفولكس فاكن جيتا موديل 1996 هناك في الوطن، وهي سيارة تلقب بـ "الكركوعة". إذا ما تم إرساله إلى العراق مرة ثانية، فإن فيتالو يفكر بأنه سوف يدخر ما يكفي لشراء محرك جديد للكركوعة. قال لي وعيناه ثابتتان على الطريق: "أحاول ألا أفكر بما قد يحصل في الثواني الثلاثين التالية. إذا أطال المرء الوقوف على أصابع قدميه. فإنه سيتعب، يذهب إلى السرير ولا يكون قادراً على إطفاء الألم الناجم عن الإرهاق."

عند مجيئه للمرة الأولى إلى العراق كانت لدى فيتالو صورة متخيلة لحال البلاد: "يعتقد الجميع أن العراق ليس إلا حفرة ترابية عملاقة." غير أنه منذ أن بدأ يسجل أميالاً على شاشة عداد شاحنته، راح فيتالو يرى عراقاً آخر، عراقاً

مختلفاً، بلداً فيه مستنقعات، حقول مروية، أشجار نخيل، وقنوات. علق بهدوء "يا للعار! بعض الأمكنة جميلة. ليس البلد كما يمكن للمرء أن يتصوره. وجودي هنا يجعلني شخصاً أفضل." مع غوص الشمس أعمق وامحاء الريف في ظلال طويلة، زادت القافلة من سرعتها. قام فيتالو برفع معدل السرعة إلى 65 ميلاً في الساعة. أفاد بأن الشاحنة تستطيع أن تسير بسرعة 85 ميلاً في الساعة، غير أن تلك سرعة مفرطة من شأنها أن تقلص من القدرة على التحكم. "يمكنني أن أزيد السرعة إلى 85 ميلاً، غير أن ذلك قد يفضي إلى موتنا." تعلم فيتالو أن يثق بمن هم أمامه ومن هم خلفه من السائقين. "ثمة شباب يفقدون عقولهم وهناك شباب يمدون جذوعهم إلى خارج السيارة ويطلقون النار." غير أن ذلك لم يكن ما أراد أن يفكر به، وليس بالتأكيد ما أردت أنا أن أفكر به. فجأة ظهرت بقعة تفجر بيضاء أمام الشاحنة. "هل تلك طلقات خطاطة؟" سأل فيتالو ممعناً النظر في الظلام. "نعم! لعلها ألعاب نارية. إنها ألعاب نارية." شَغَّلَ الموسيقا، أحسستُ بشيء من الراحة والانفراج، ولو للحظة، ونحن نتابع بريق الاحتفال ربما بزفاف عروسين.

أمضيت أسبوعاً مع المارينز في **كالسو**، مرجئة عودتي إلى بغداد قدر استطاعتي. تدحرج تشرين الثاني/نوفمبر متوغلاً في كانون الأول/ديسمبر، ولم أعد أشعر بأي خوف في الحقيقة، حتى لدى قيام قذيفة مورتار بصفع مقهى الإنترنت، مهمشة جهاز الكمبيوتر الذي كنت قبل قليل استخدمه لإرسال قصة، وجارحة العشرات من الجنود. كنت قد ذهبت إلى المقهى طلباً للدفء. بات الجو بارداً جداً في العراق حتى إنني صرت أجد صعوبة في إرسال تقاريري عبر طبقي الفضائي المثبت فوق ملجأ خرساني. إن الخيمة التي كنت أتقاسمها مع عدد من المارينز النساء لم تكن مجهزة بوسائل التدفئة، وكنت أدفن نفسي في كيس نومي ليلاً، لاتقاء البرد القارس. للوصول إلى مقر إقامتي، تعين علي أن أمشي بجانب خيمة بيضاء كبيرة، لَوَّحَتْها نار إحدى قذائف المورتار. ثمة قذيفة

ضربت الخيمة قبل بضعة أسابيع، فتركت فارغة إلا من الهواء، وجوابنها مرفرفة مع النسمات، ولا كلمة واحدة عما أصاب شاغليها السابقين. كانت قاعدة كالسو تُضرب دون توقف بقذائف المورتار والصواريخ ولم يكن يُسمح لنا بدخول المطعم دون ستراتنا الواقية وخوذاتنا. ذات بعد ظهر كنت في البورتا ـ جون حين أحسست بهزة ارتطام إحدى قذائف المورتار بالأرض. قفزت من البورتا ـ جون وهرعت إلى الملجأ الخرساني القريب من ورشة العلاقات العامة للكابتن ديفيد إي. نفرز والرقيب الأول جو إسبينوزا. كان الملجأ هو الذي ركَّبْتُ فوقه قرصَ القمر الصناعي. محشورة مع المارينز تحت الكتلة الخرسانية، تذكرت أنني كنت لا أزال قادرةً على الاتصال عبر الإنترنت. "من منكم يريد اتصالاً عبر شبكة الياهو؟" رحت أسأل ممررة كمبيوتري على الجميع.

لم تكن **كالسو** مكاناً سهلاً بالنسبة للمارينز الذين كانوا يعيشون هناك. كانت معزولة بين أدغال النخيل والحقول الزراعية. كان الكولونيل رون جونسون، رئيس وحدة المارينز الخاصة الرابعة والعشرين، هو القائد في القاعدة. مثل بيتارد في **وور هورس (جواد الحرب)**، كان جونسون قائداً أنيساً، ودوداً، متمتعاً باحترام مرؤوسيه ولطيفاً مع الإعلاميين. ذات صباح كانوني/ديسمبري دعاني جونسون إلى مرافقة دورية ذاهبة إلى قرية حصوة الواقعة على مسافة 25 ميلاً إلى الجنوب من بغداد. قبل بضعة أسابيع كان المتمردون قد أغاروا على مركز الشرطة في البلدة وأمروا الرجال بالمغادرة. وبعد دقائق نسفوا المركز. ومنذ ذلك التاريخ كان بحارة (مارينز) جونسون قد أقاموا قيادة أمنية عبر قناة ملأى بالقمامة ممتدة بمحاذاة مركز الشرطة المدمر. دوريتنا الراجلة شقت طريقها عبر السوق دون حوادث. توقف جونسون للتحدث مع الباعة واشترى برتقالاً أخضر القشر، إبريق شاي من القصدير، وقطعتي سجاد صغيرتين. الرجل الذي باعه البرتقال شكا من النقص في الأعمال. قال بائع الفواكه لجونسون إن "الناس يخافون الخروج للتسوق حين يرون المارينز." رجل آخر يبيع الفروج تذمر

من قيام المارينز بإغلاق الطريق المارة أمام السوق. وعد جونسون بفتح الطريق في اليوم التالي، غير أنه قال لمن باعه إبريق الشاي: "حين أوعز بإعادة فتح الطريق، لا تسمح للناس بأن يصفوا" سياراتهم على امتداد السوق.

فيما كان المارينز يقومون بأعمال الدورية في وسط البلدة، بادرتْهم مجموعات من الصبية الصغار طالبين قطعاً نقدية، قفازات، بل وحتى أقلام الحبر الناشف المدسوسة في جيب السترات العراقية. كان المارينز يتحدثون مع الصبية ويتبادلون معهم جملاً قصيرة بالإنجليزية إلى أن جاء عنصر من الحرس الوطني العراقي يغطي وجهه بقناع أسود وأبعد الصغار قائلاً: "يلاّ غوم!" هيا ابتعدوا من هنا! هم ركضوا في الشارع، ونحن عدنا إلى سياراتنا الهمفي استعداداً لرحلة العودة إلى القاعدة.

في اليوم التالي تسلقت شاحنة أخرى تعيدني إلى بغداد. هذه المرة لم أحاول إجراء أي مقابلة مع السائق. فهاوي الغناء فيتالو الذي أوصلني إلى **كالسو** كان قد عوقب بعد نشر مقالتي. كان فيتالو هذا قد خالف القواعد إذ استمع إلى الموسيقا في أثناء القيادة. أحزنني الأمر كثيراً رغم أني علمت أن عقوبته اقتصرت على عدد من مناوبات الخدمة الإضافية. ومع ذلك، فإنني لم أكن مستعدةً لتوريط أي شخص آخر في أي مشكلة. كنت الآن جاهزة للعودة إلى بغداد، جاهزة كما في أيّ وقتٍ سابق أو لاحق. لن أبقى هناك سوى بضعة أيام قبل مغادرة البلاد في رحلة قصيرة إلى بودابست. كنت قد غبت نحو ثمانية أسابيع. لم أعد خائفة، غير أنني توقفت أيضاً عن الإحساس العميق بالواقع. صحيح أنني كنت آكل وأتنفس وأمشي وأركض. إلا أنني كنت عاكفة على تشغيل طيار آلي وليست لدي أي فكرة كيف أوقفه.

لسنا، بأكثريتنا، سوى عائلة معلمين، لوثريين مواظبين على الذهاب إلى الكنيسة، وجمهوريين مسجلين في الحزب من حَمَلَة البطاقات الحزبية. غير أننا، أختي وأنا، استثناءان، وذلك كثيراً ما يعني الانجرار إلى مناقشات سياسية حادة، على مائدة العشاء عموماً، بعد الإكثار من الخمر، مساء عيد الميلاد. كنا نتصدى للاتهامات بأن العيش على الساحل الشرقي، الاهتداء إلى الكاثوليكية، والمبالغة في الحصول على الشهادات قد أدت إلى جعلنا من النواعم. أي من الليبراليين. كنا نؤكد أننا صنعنا نفسينا بنفسينا، متحديتين التصنيفات السهلة.

ما إن قررتْ أختي الالتحاق بالحرب حتى توقفتْ عن الكلام حول الحرب، كفتْ عن تحليل التدخل الأمريكي وتسييسه. كنت أعلم أن تلك كانت طريقتها في إعداد نفسها لرؤية العراق، للإصغاء إلى شعبه، لسماع قصص الجنود الأمريكيين بأكبر قدرٍ ممكن من الموضوعية. كانت كذلك على الدوام، متطلعة إلى نوعٍ من الموضوعية، إلى نوع من الحقيقة الناصعة بلا أي شائبة، تلك الحقيقة التي تعتقد الفيلسوفة في داخلي أنها مستحيلة، ولكن الأخت في داخلي تعدّها بطولية ومثيرة للإعجاب.

عندما بدأ انتقاد عمل جاكي يكتسب بعداً جدياً، بعد انقضاء عدد غير قليل من الشهر على عملها في العراق، تملكها غضب شديد وراحت تخبرني عن مواقع إلكترونية يستخدمها أناس دائبون على توبيخها. سألتها: "لماذا تبالين؟ ليسوا إلا أغبياء. إنهم لا شيء."

ردت علي قائلة: "لأنني هنا. وهم ليسوا هنا." توسلت إلى أخينا تيم، وهو محافظ، أن يرد على المتطفلين، أن يتحدث معهم بوصفه محافظاً يكلم محافظاً آخر، أن يدافع عن شرف أخته. أثار حفيظتها أن توضع في سلة واحد مع المقولة المعروفة باسم "وسائل الإعلام الليبرالية." وأعتقد أنها

صُدمت حين علمت بأن بعض القراء كانوا مستعدين لأن يفرحوا باختطافها أو موتها.

حتى في صفوف عائلتنا الموسعة كانت ثمة غمغمات استياء من وجود جاكي في العراق، وقد آلمها ذلك أكثر من انتقادات الجمهور. فهؤلاء كانوا أناساً سبق لها أن نشأت وترعرعت معهم، أناساً كانوا يعرفون الشخص الحقيقي الكامن وراء أي لقب أو عنوان. إحدى بنات العمومة اتهمتها بإنكار المسيح، تماماً كما فعل بطرس، حين تنكرت في زي امرأة مسلمة لتجنب خطر انكشاف حقيقة كونها غريبة.

تعبيراً عن دعمنا، احتشدت عائلتنا المباشرة والتفت حول جيشنا المؤلف من واحدة، آملين أن تسمع هتافاتنا المؤيدة الحاجبة لأصوات الآخرين. لا أشرطة صفراء. لا لصاقات صوادم أو مغانط سيارات. لا احتجاجات أو مظاهرات على منعطفات شوارع مدن. فقط حب خاص، عاجل، مدروس.

بصرف النظر عن قناعاتنا بشأن الحرب، كنا متفهمين لرسالة قواتنا: أن تكون عيننا وأذننا في العراق. نحن لم نكن هنا. في حين أنها كانت.